

النقد السياسي عند نعوم شومسكي

د/جميلة حنيفة

قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2

Abstract

The aim of this paper is to highlight Noam Chomsky's points of view as a well-known political and a social critic and to question whether he provided any coherent and systematic political theory. In fact, besides his outstanding contribution to the theory of generative grammar, he strongly opposed the US policy in all over the world, especially in the Middle East. He asserted clearly that on the intellectuals' shoulders lays the responsibility of telling the truth and revealing the lies. He wrote about many issues such as; education, religion, terrorism, human rights and democracy, US foreign policy, the war in Iraq, the manipulation of the media and the globalization. All that and many other things make him truly a distinguished political critic.

الملخص

نعوم تشومسكي Noam homsky¹ فيلسوف وناقد سياسي أمريكي من أصل يهودي أحد أعمدة اللسانيات الحديثة بنظريته في القواعد النحوية التوليدية. وإلى جانب إسهامه الفذ والمبدع في مجال اللسانيات شق تشومسكي طريق السياسة فهو ناقد مشهور بمواقفه الجريئة المعارضة للسياسة الأمريكية في العالم ككل وخاصة في الشرق الأوسط، فهو يرى أنه على عاتق المثقفين تقع مسؤولية الإفصاح عن الحقيقة والكشف عن الأكاذيب. لقد شدد اهتمامه بمواضيع كثيرة منها: التربية والتعليم، الدين، الإرهاب، حقوق الإنسان والديمقراطية، السياسة الأمريكية الخارجية، الحرب على العراق، استخدام وسائل الإعلام، العولمة، دور المثقف في المجتمع وغيرها ما جعله يمثل بحق ناقدا ثقافيا بامتياز.

¹ ولد أفرانعم تشومسكي في السابع ديسمبر عام 1928 في فلديلفيا Philadelphia في الولايات المتحدة الأمريكية هو ذو أصل يهودي. من أبوين مثقفين. والده وليام تشومسكي معلم اللغة العبرية. التحق بجامعة بنسلفانيا Pennsylvania سنة 1945 ونال درجة الدكتوراه في اللسانيات سنة 1955. ومذ ذاك وهو أستاذ بمعهد التكنولوجيا بمستشوستش Massachusetts Institute of Technology. أثر فيه العديد من اللسانيين والفلاسفة منهم أستاذه زلق هاريس Zellig Harris وروني ديكرات René Descartes وأفلاطون Plato وأدم سميث Adam Smith هذا في الجانب اللساني. أما فيما يتعلق بفكره السياسي فهو قد تأثر بالكلاسيكيين الفوضويين بطبيعة الحال وفلهلم فون همبولدت وكذلك الفكر التنويري عموما وبالأخص برتراند راسل وجون ديوي.

إن مواقف تشومسكي الملتزمة وانخراطه في معالجة قضايا الساعة بالتحليل والنقد جعلنا نختار تسليط الضوء على فكرة النقد السياسي عنده. وسوف نحاول التعرف على مبادئ هذا النقد متسائلين في الآن ذاته عن الانتماء السياسي لتشومسكي ولما لم يقدم نظرية متكاملة في المجتمع والسياسة ؟ وتجدر الإشارة أن الكتابات المتناولة لهذا الموضوع قليلة حتى باللغة الأجنبية نفسها فما السبب يا ترى؟ ومن العناوين المتاحة على شبكة الانترنت نذكر مايلي:

Alison Edgley, *The Social and Political Thought of Noam Chomsky*, Routledge, London, 2000.

Alison Edgley, "Manufacturing Consistency: Social science, Rhetoric and Chomsky's Critic". In: *Westminster Papers in Communication and Culture*, London, 2009

Joshua Cohen & Joel Rogers, "Knowledge, Morality and Hope: The Social Thought of Noam Chomsky",

Ronald Osborn, "Noam Chomsky and the realist tradition", *Review of International Studies*, 2009.

Peter Wilkin, "Chomsky and Foucault on Human Nature and Politics: An Essential Difference?" In: *Social Theory and Practice*, Vol. 25, No. 2, 1999.

C.P. Otero(ed), *Chomsky on Democracy & Education*, 2003

Normand Baillargeon, "Noam Chomsky: Défense et illustration du bon usage de la liberté académique." in: *Analyses et Discussions*, n :8, Montreal, 2006

Odile Jacob, *Noam Chomsky : Une voix Discordante*, 1998.

أما باللغة العربية فالمتاح على شبكة الانترنت عبارة عن تعريفات بحياته وينقده للسياسة الأمريكية. وحسب علمنا لا توجد أية دراسة أكاديمية اهتمت بالبحث في هذا الموضوع تحديدا حيث جل الدراسات إن لم نقل كلها تركز على نظريته في اللسانيات التوليدية. ولكن من الجدير بالذكر أن أعمال تشومسكي قد لقيت اهتماما خاصا من حيث الترجمة حيث تمت ترجمة الكثير منها إلى اللغة العربية.

وترى الباحثة ألسن أجلي Alison Edgley أن الإنتاج السياسي لتشومسكي

مهمش بصفة مقصودة حيث تقول: "رغم غزارة إنتاجه وشعبيته المستمرة فإن

كتاباتة السياسية تبقى مهمشة على الأقل في الأوساط الأكاديمية. ما عدا بعض الدروس والنصوص في العلاقات الدولية أو دراسات الإعلام (حيث يمكن أن يستخدم عمله لتوضيح-بشكل غير صحيح في اعتقادي- الموقف الماركسي...نادرا ما يدرس عمله أو يُناقش ضمن العلوم الاجتماعية...وعندما يتم الرجوع إليه ففي الغالب يكون عرضة لهجوم لاذع. ومع ذلك فإن عمله وبشكل عام محل تجاهل². ومع أن الحجة المقدمة لهذا التجاهل هي كون أفكار تشومسكي السياسية موضع جدال وبالتالي فهي ليست أهلا للدراسة الأكاديمية إلا أن المفارقة في نظر ألسن أجلي تكمن في عدم وجود ولا دراسة واحدة اهتمت بإثبات الطابع الجدلي لعمله في مجال السياسة والاجتماع أو لتلبسه بالطابع الدعائي. وتخلص الباحثة إلى القول: "إن عمل تشومسكي لم يقرأ أصلا حتى يرفض، بدلا من ذلك وببساطة لقد جعلوه غير مفهوم أو غير مرئي بواسطة الإيديولوجيا. وذلك بسبب تصور سياسي ومؤسسي متكامل عن النخبة"³. ولعل أفضل وأذكي الطرق لتقليل من خطورة مفكر ما انشق عن الصف هو تهميش إنتاجه وعدم الاكتراث بما يقول. ونعتقد أن هذا ما حدث وما يزال يحدث مع نعوم تشومسكي وغيره من المثقفين الملتزمين. فهو مثقف"يندرج ضمن منظري المؤامرة... ينبغي العمل على اجتثاث تأثيرهم الخبيث"⁴.

سوف نعتمد في هذا البحث على بعض من مؤلفاته إذ الجدير بالذكر أنه غزير الإنتاج فقد كتب العديد من الأعمال سواء في مجال اللسانيات مثل البنيات الدلالية 1954 Syntactic Structures، والفكر واللغة 1968 Language and Mind، أو في مجال النقد السياسي والتي ترجم الكثير منها إلى اللغة العربية ونذكر

² -Alison Edgley, "Manufacturing consistency: social science, rhetoric and Chomsky's critic", Westminster Papers in Communication and Culture, vol6(2), London, 2009, P23

³ - Ibid, P24

⁴ - نعوم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها أبدا... لقاءات ومقالات، ترجمة: أسعد الحسين، (دمشق: دار نينوي، 2010)، ص133.

على سبيل المثال: ما الذي يريده العم سام فعلا 1992 What Uncle Sam Really Wants، الدول الفاشلة 2006 Failed States: The Abuse of Power and the Assault on Democracy، صنع القرار: الاقتصاد السياسي لوسائل الاعلام Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass 1988 Media. سنة 501 الغزو مستمر 1996 Year 501 the Conquest Continues. وإلى جانب الكتابة فهو فيلسوف نشط أيضا ودائم الحضور في جامعات مختلفة لإلقاء الدروس والمحاضرات وللمشاركة في الملتقيات وعقد ندوات أكاديمية أو صحافية.

بادئ ذي بدء يصنف تشومسكي ضمن الفوضوية الاجتماعية Social Anarchism وهو تيار سياسي عاد إلى الظهور بقوة بفعل الإسهام النشط للعديد من تابعيه منهم جورج وودكوك (1912-1995) Georges Woodcock وكولن وورد (1924-2010) Colin Ward وروبرت بول وولف Robert Paul Wolff وبيتر مارشال Peter Marshall وبالطبع نعوم تشومسكي.

وفي حوار أجرته معه مجلة الثورة الحمراء والسوداء سنة 1995 Red and black revolution magazine بعنوان "الفوضوية الماركسية والأمل في المستقبل"، يصرح تشومسكي أنه انجذب إلى الفوضوية منذ مرحلة المراهقة حين اكتشف أن العالم أوسع بكثير من الحيز الضيق الذي وضعته فيه سياسات البشر وحددته. وهنا يطرح السؤال بشأن الفوضوية معناها ومبدؤها؟

مفهوم الفوضوية:

من الناحية اللغوية كلمة⁵ Anarchism أصلها Anarchy وهي مشتقة من الكلمة اليونانية Anarchia وتعني عدم وجود حكومة. أما اصطلاحا فهي تشير إلى

⁵ - تاريخيا تعود نشأة الفوضوية إلى الكلاسيكيين وليام جودوين (1756-1836) William Godwin (1756-1836) Enquiry Concerning Political Justice، والفرنسي بيير جوزف برودون (1809-1865) Pierre Joseph Proudhon [What is Property? Or, an Inquiry into the Principle of](#)

نظرية في الفلسفة السياسية والاجتماعية هدفها إنشاء مجتمع يكون فيه الأفراد أحرارا ومتساوين.

يقوم التصور الفوضوي وفق روبرت وولف⁶ Robert Paul Wolff على مفهوم الاستقلالية The concept of Authority الذي مفاده أن الناس مسؤولون على أفعالهم، ما يعني أنهم أحرار بالضرورة وقادرين على اختيار تصرفاتهم. لكن المسؤولية على الفعل لا تتأني من مجرد أن الإنسان حر وقادر على اختيار الفعل، لأن تحمل المسؤولية يتضمن محاولة تحديد ما يجب فعله. ويتابع موضحا مفهوم الاستقلالية في قوله إن "كل إنسان عاقل وحر ومريد ملزم بتحمل مسؤولية أفعاله وملزم بالانخراط في إجراء تفكري وبحث ومدولة حول ما يجب فعله. يمكن الفوضوي أن يأخذ بنصيحة الغير حول التزاماته الأخلاقية وحول ما هو خير وما هو شر. ويمكن أن يستفيد من آراء الآخرين في هذا الشأن لكن في النهاية هو مستقل، وليس خاضعا لإرادة الآخر فالقرار يعود إليه. وهو وحده القادر على اتخاذ قرارات أخلاقية يعبر عنها في شكل أوامر Imperatives موجّهة لذاته. يمكن القول إنه يعطي أوامر لذاته أو أنه مشرع لذاته"⁷. من الواضح هنا تأثير كانط حيث الفرد يخضع للقوانين التي شرعها هو بنفسه لنفسه ويظهر الترابط بين الحرية والاستقلالية في تحديد مفهوم الاستقلالية الأخلاقية.

1840 [Right and Government](#). والروسيين ميخائيل باكونين (1814-1876) Mikhail Bakunin
وبيتر كروبوتكين (1842-1921) Peter Kropotkin.

⁶ روبرت بول وولف فيلسوف أمريكي معاصر ينتمي إلى النزعة الفوضوية، من أهم ما كتب: فقر الليبرالية The Poverty of Liberalism، 1968، في الدفاع عن الفوضوية 1970 In efense

The Autonomy of Reason 1974 واستقلالية العقل of Anarchism

⁷ - Robert Paul Wolff, In Defense of Anarchism, p484

هذا بالنسبة إلى الفرد أما بالنسبة إلى الدولة فهي تقوم على مبدأ السلطة Authority وهي تعني "الحق في الأمر وبالترابط الحق في الطاعة"⁸ و"الطاعة ليست مسألة أن تفعل ما يأمرك به الآخر بل هي أن تفعل ما يأمرك به لأنهمرك به"⁹. هكذا إذا كانت السلطة أساس الدولة، وكانت الاستقلالية أساس الفردية فلا توافق إذن بين الاثنين، ذلك لأن الفرد سوف يقاوم دوما سلطة الدولة عليه، والتي تعتبرها الدولة حقا، ويدافع عن استقلاليته في اتخاذ القرار وهو ما يعتبره حقه. وهذا تكون الفوضوية النظرية السياسية والأخلاقية الوحيدة المتوافقة مع مبدأ الاستقلالية الفردية.

محمل القول يعتبر مبدأ الاستقلالية "القيمة الأعلى التي تولد واجبا مطلقا للفعل فقط لأجل أسباب يراها الشخص خيرة. من جهة أخرى تطالب الدولة بالسلطة على المواطنين وتخلق التزامات لهم حتى من دون أن يوافقوا عليها لأن الاستقلالية الأخلاقية هي القيمة الأعلى من طاعة الدولة فلا يمكن للدولة أن تكون لها استقلالية أخلاقية على الفرد"¹⁰. هذا عن مفهوم الفوضوية بشكل عام وراهن.

أما من منظور تشومسكي فهو أحيانا يستعمل مصطلح الاشتراكية التحررية Libertarian Socialism في السياق نفسه الذي يستعمل فيه مصطلح الفوضوية. والمقصود به عموما نظام اجتماعي يقوم على الإيمان بالحرية في التفكير والفعل والإرادة لأفراد يمتلكون قوة سياسية ووسائل إنتاج الخيرات وتوزيعها. بهذا المعنى يكون الفوضويون مناهضين للرأسمالية باعتبارها نظام هيمنة وقمع واستغلال. وفي هذا السياق كثيرا ما اعتبره البعض ماركسيا كما ذهب إلى ذلك الباحثة الانجليزية ألسن أجلي Alison Edgley.

⁸ - Ibid, p 482

⁹ - Ibid, p 483

¹⁰ - Ibid, p 485

وبالرغم من وضوح هذه التعاريف فإن كلمة فوضوية يشوبها الكثير من الغموض وربما حتى التشويه المقصود. فالملاحظ أن الكلمة باللغة العربية مثلا توجي إلى الفوضى وعدم النظام والرغبة في التخريب وإثارة القلاقل وهذا ربما يعود إلى اللفظة في حد ذاتها، والتي تفتح باب للتأويلات وللتشويه بالمتعمد من قبل الساعين إلى التحكم في العقول وتكميم الأفواه. وهذا ما يؤكد تشومسكي في قوله إن: "الثقافة الفكرية العامة... تخلط وتساوي بين الفوضوية والتشويش والعنف والقنابل والاضطراب وغيره. بعض الناس يندهشون حين يعرفون أني أتكلم بصورة إيجابية عن الفوضوية وأحدد انتمائي إلى تقاليدنا الرائدة"¹¹. وبهذا الشأن يوضح أنه يقتبس أفكاره من الشخصيات البارزة في الفوضوية والذين وصفوا أنفسهم بالاشتراكيين مقابل المثقفين الراديكاليين المساندين لسلطة الدولة.

يقر تشومسكي بانتمائه الصريح إلى الفوضوية لكنه بالرغم من ذلك يرى أن شكلا معيننا من الدولة أحيانا ضروري ومبرر، وهذا ما يجعل فوضويته لينة حيث يقول: "أنا لست من مؤيدي وضع الناس في أقفاص. وبالمقابل أعتقد بأن الناس يجب أن يكونوا في أقفاص إن كان هناك نمرفترس يتجول في الخارج. وإن خرجوا خارج القفص سيقتلهم ذلك النمر. لهذا هناك مبررات للأقفاص أحيانا. هذا لا يعني بأن الأقفاص شيء جيد. إن سلطة الدولة مثال جيد عن القفص الضروري"¹². والمقصود بالنمور المفترسة الشركات المتعددة الجنسيات وعبر القومية وهي واحدة من بين مؤسسات دكتاتورية مستبدة اخترعها المجتمع. وهناك "قفص اسمه الدولة وهو إلى حد ما تحت السيطرة الشعبية. وهذا القفص يحمي الناس من نهب الشركات. لهذا هناك حاجة مؤقتة إلى الحفاظ على القفص وإلى توسيعه أيضا"¹³. مع أنه في مواضع أخرى كثيرة يقر على خطى كارل ماركس

¹¹ - نعوم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها أبدا... لقاءات ومقالات، ص 129

¹² - المصدر نفسه، ص 71

¹³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بأن الدولة أداة قمع فهي تزود الاقتصاد الرأسمالي بالتنظيمات التشريعية اللازمة لوجوده واستمراريته ولكنه لا يوافق على إلغائها تماما فهي شر لا بد منه إن صح التعبير.

وفي حوار أجراه معه الكاتب والناشط النقابي الكندي نورمونبيارجيون Normand Baillargeon بين تشومسكي أن مهمة الفيلسوف الفوضوي تتمثل في العمل على المستويين الفكري والتطبيقي من أجل الكشف عن آليات القمع والهيمنة حيثما كانت، ومن ثم نقدها بالسؤال عن شرعيتها. ولكن أحيانا لهذه الآليات مبرراتها وهنا يورد المثال الآتي قائلا: "إذا أمسكت ذراع حفيدتي ذات الثلاث سنوات وهي تعبر الشارع لتجنب وقوع حادث، فهذه يمكن عدها حالة قمع وهيمنة مبررين بالحفاظ على حياتها. لكن من جهة أخرى فإن معظم هياكل الهيمنة والقهر لا تصمد أمام التحليل حيث يتم فرضها على المجموع من أجل مصلحة القلة حتى أننا أحيانا لا ندرك حقيقتها، ونميل إلى اعتبارها ضرورية"¹⁴.

قبل التطرق إلى تفاصيل مواقفه الملتزمة تجاه قضايا الساعة من المستحسن بل ومن الضروري منهجيا الإشارة ولو بإيجاز إلى إسهامه المبدع في اللسانيات، وذلك لوجود عنصر مشترك بين هذا المجال ومجال تفكيره السياسي ويتمثل في مفهومه عن الطبيعة البشرية وهو مفهوم محوري.

اللسانيات التوليدية:

تابع تشومسكي تقليد الفلاسفة التحليليين فأولي أهمية محورية للغة. إن اللغة في نظره خاصية بشرية نحن مزودون بها بيولوجيا وهي جزء من طبيعتنا المشتركة و"إعدادنا الإحيائي المحدد بالوراثة". ليست اللغة مسألة قدرة إنما هي نظام من المعرفة وراثي بيولوجي. ولتسهيل الفهم وتقريب الفكرة يضرب تشومسكي عدة أمثلة.

¹⁴ - Entretien avec NoamChomsky, Propos recueillis, traduits et présentés par Normand Baillargeon, Éditions de l'Épisode, 1999 in : lecerveau.mcgill.ca/flash/capsules/articles_pdf/entretiens_chomsky.pdf

"لو افترضنا أن خوان أحد متكلمي الاسبانية تعرض للإصابة بالحبسة. وبعد إصابة رأسه بجرح فقد القدرة على الكلام والفهم فقداناً تاماً. فهل يدل فقدته للقدرة على الكلام والفهم أنه فقد المعرفة باللغة الاسبانية؟ والإجابة عن ذلك أن فقدته للمعرفة بالاسبانية ليس أمراً حتماً وهو ما سنكتشفه إن استعاد قدرته على الكلام والفهم بعد براء الجرح. فهو سيستعيد القدرة على تكلم الاسبانية وفهمها لا اليابانية وسوف يستعيد ذلك من غير حاجة إلى تدريب أو تجربة خاصة مع اللغة الاسبانية. ... كيف استطاع تنمية هذه القدرة من غير تعليم أو تجربة؟ وهو أمر لا يستطيعه أي طفل؟ فمن الواضح إذن أن شيئاً معيناً بقي حين فقدت القدرة على الكلام وفقد الفهم ولا يمكن أن تكون القدرة هي الشيء الذي بقي ذلك أنها فُقدت. أما الذي بقي فليس إلا نظاماً من المعرفة أي النظام المعرفي للعقل /الدماغ"¹⁵.

كيف أمكن للإنسان اكتساب هذه الأشكال المختلفة والمعقدة والمتنوعة من اللغة؟ يجيب تشومسكي أن البشر ولدوا وهم مزودون بالقدرة على فهم اللغة البشرية عموماً. فكل اللغات تتضمن كلمات وأفعال وصفات وأحوال، وقواعدها مهما اختلفت فهي ذات طبيعة واحدة والإنسان يدركها بشكل فطري.

مفهوم الطبيعة البشرية

لا بد كما سبق وأن ذكرنا من تناول مفهوم الطبيعة البشرية عند تشومسكي وهو مفهوم محوري في فلسفته ككل سواء في اللسانيات أو في تفكيره السياسي. لقد دافع عن فكرة طبيعة بشرية فطرية وكونية استمدتها كما رأينا من أعماله في اللسانيات التوليدية وهي طبيعة مزودة بخصائص طبيعية نوعية

¹⁵. نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبالان المزيني، الطبعة الأولى، (الدار

البيضاء: دار طوبقال، 1990)، ص 24-25

موجودة لدى البشر ككل¹⁶. منظور تشومسكي إذن عقلاني وليس تجريبيًا، فهو يدافع عن فكرة أنه يوجد مكون فطري محدد للطبيعة البشرية، هو معطى بيولوجي غير متغير، ويشكل أساس الكل ما نفعله بقدراتنا العقلية.

وفي حوار أجراه معه كيت سكوبر في 1988 بين تشومسكي أن موقف أي شخص بشأن أية قضية سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو حتى شخصية هو في الأساس يقوم على مفهوم معين للطبيعة البشرية. يروم الإنسان بطبيعته إلى التمتع بحريته واستقلالته والعيش بكرامة ويرفض ما تفرضه آليات القمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من تحديدات ومعوقات، بل ويعمل على تحطيمها لأنها تحول دون تفتق مواهبه وتحقيق ذاته على الوجه الذي يراه أكملًا.

وردا على فلاسفة ما بعد الحداثة وتحديدًا ميشال فوكو يقول تشومسكي إنه "توجد طبيعة بشرية فطرية وأي نكران لهذه الفكرة هو قبول بإمكان أن تتحول الخلية البشرية الملقحة إلى سرطان أو إلى حشرة"، أو أن الإنسان تنمو له أرجل وأذرع بدلًا من أجنحة. وبالفعل سوف يطور الطفل في الأمازون والطفل في نيويورك شكلين مختلفين من الوعي والثقافة ما يعني أنهما خاضعان أيضًا لتأثير الظروف المحيطة البيئية والاجتماعية عموماً. والمهم بالنسبة إلى

¹⁶. نظريته في النحو التوليدي تجاوزت المقارنتين التقليديتين البنوية لفرديناند ديسوسير De Saussure F. اللسانيات الحديثة والوظيفية التجريبية ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield ولاحقاً السلوكية لعالم النفس السويدي سكينر B.F Skinner الذي رأى أن الإنسان يكتسب اللغة بواسطة التعلم والمحاكاة. مقارنته فطرية عقلية استنتاجية مفادها أن الطفل يولد مجهز باستعداد فطري يمكنه من تعلم اللغة. ولقد صاغ نظريته اللسانية في كتابين مهمين هما: مناحي نظرية النحو في 1965 Aspects of the Theory of Syntax والبنية المنطقية للنظرية اللغوية في 1975 The Logical Structure of Linguistic Theory

تشومسكي أنه مهما كانت البيئة التي يجد الطفل فيها نفسه فإنه سوف يطور حتما شكلا معيناً من الوعي ما يدل على وجود "موجه غير عادي ومكون تنظيمي للعقل الداخلي"¹⁷. وأبسط مثال على ذلك أن الناس بالرغم من اختلاف ثقافتهم واعتقاداتهم فإنهم قادرون على التواصل فيما بينهم والاتفاق على ما هو خير وما هو شر وما هو فضيلة يستحسن فعله، وما هو رذيلة يستهجن القيام به. إذن يوجد مكون فطري ومكون مكتسب للطبيعة البشرية؛ الاستعدادات الطبيعية من جهة ومؤسسات المجتمع بشكل عام من جهة أخرى.

ومن منظور ألسن أجلي ينطوي مفهوم الطبيعة البشرية لدى تشومسكي على فكرة الحرية ليس بوصفها دلالة على كون الإنسان كائناً مستقلاً وذرياً فقط، بل لكون الطبيعة البشرية تنطوي على خاصية أساسية هي الإبداع¹⁸ creativity. ولتجد الطاقات الإبداعية طريقها نحو التحقق والتفتق والتطور لا بد من توفر الحرية فهي مبدأ فطري هذا من جهة والوسط الجماعي المحفز والمساعد والمتعاون من جهة أخرى. وهي الفكرة ذاتها التي عبر عنها الفيلسوف جون ديوي ما يدل على مدى تأثير تشومسكي بالبراغماتية الأداتية لجون ديوي.

وتمتلك الطبيعة البشرية قدرات عدة ومتنوعة وطرق عدة ومتنوعة لتحقيق ذاتها ولكن لا بد من وجود بنيات مؤسساتية مساعدة ومشجعة على إنماء هذه القدرات وليس على قمعها أو استصغارها. و"الطريقة الوحيدة للبقاء على الحياة هي ترك تلك العناصر الموجودة في طبيعتك تعبر عن ذاتها. إذا كان لدينا مؤسسات تجعل من الجشع الخاصية الوحيدة للكائنات البشرية وتشجع على الجشع الخالص على حساب المشاعر الإنسانية الأخرى والالتزامات فإننا سوف

¹⁷- نعوم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها أبدا... ص 66

¹⁸- Alison Edgley, "Manufacturing consistency: social science, rhetoric and Chomsky's critic", p33

نحصل على مجتمع مؤسس على الجشع بكل تبعاته. ويمكن تنظيم مجتمع آخر مختلف تسوده مشاعر وعواطف أخرى مثل التضامن، الدعم، التعاطف¹⁹.

نقد السياسة الأمريكية:

يعد تشومسكي من أعتى المفكرين النقاد للسياسة الأمريكية سواء بالداخل أو الخارج. تسعى الولايات المتحدة إلى توجيه السياسة العالمية والسيطرة على الاقتصاد العالمي، وذلك عن طريق الترويج للديمقراطية وإشاعتها في العالم وتصور ذاتها، أي أمريكا بوصفها منقذ العالم ومخلصه من الأشرار*. وبالمقابل تقوم ب"تصوير العدو الراهن ككيان شيطاني بطبيعته"²⁰. هذا هو المبدأ المركزي في السياسة الخارجية لأمريكا ويتخذ كمبرر استراتيجي للتدخل في شؤون الدول الأخرى وشن الحرب عليها بحجة أنها قامعة لحقوق الإنسان ومقترفة لجرائم مروعة تمثل تهديدا للديمقراطية ككل. هكذا "من الضروري جدا خلق انطباعات خاطئة ليس عن الشياطين الكبار في الزمن الراهن فحسب، بل وعن نبيل الذات الفريد من نوعه كذلك. وبصورة خاصة، ينبغي تصوير العدوان على أنه دفاع عن النفس وإخلاص لرؤى ملهمة"²¹. وليس مثل هذا النوع من التفكير بغريب عن الغرب الاستعماري ككل بل وحتى عمن يعد من عقولها النيرة مثل جون ستيوارت ميل الذي كتب بحث بريطانيا على الماضي قديما في سياستها الامبريالية والاستعمارية ضد البرابرة في الهند بحجة إحلال العدل والسلام ونشر التحضر

¹⁹ - Ibid, p35

²⁰ نعوم تشومسكي، الدول الفاشلة، إساءة استعمال القوة والتعدي على الديمقراطية، ترجمة

سامي الكعكي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 2007)، ص 130

* يذكرنا هذا بمقولة جون ونثروب (1588-1649) John Winthrop القس البيوريتاني الإنجليزي الذي قاد مجموعة من المهاجرين إلى ماستشوسيت الأمريكية حيث ألقى خطابا مشهورا في 1630 ضمنه كلاما ذو بعد استراتيجي حيث قال : "علينا أن نكون مثل مدينة في أعلى الهضبة كل أنظار الناس مصوبة إلينا City upon a Hill".

²¹ - المصدر نفسه، ص 131

وذلك رغم ما يمكن أن ينالها من قدح وذم. والأمر سيان بالنسبة إلى الاستعمار الفرنسي الذي برر عدوانه على بلدان شمال إفريقيا بحجة نشر الحضرة. للاستعمار وجه واحد مهما تعددت أساليبه واختلفت مقتضيات الزمان والمكان. وإن الاستعمار لم ينته بل إن الحاجة إليه ما تزال موجودة و"ماسة اليوم مثلما كانت في القرن التاسع عشر لحمل مبادئ النظام والحرية والعدالة إلى باقي أنحاء العالم. المبادئ التي تعتنقها وتعصم بها مجتمعات "ما بعد الحداثة"²². وتتخذ الإستراتيجية الأمريكية في العدوان على الشعوب -كما وصفها تشومسكي في كتاباته المختلفة- تبريرات متنوعة كثيرة تتوافق مع طبيعة المكان المراد التحكم فيه وطبيعة الشعوب وثقافتها وكذلك ثرواتها وخاصة النفطية منها. وتمثل إجمالاً فيما يلي:

- تبني استراتيجية تحويل الاستياء الجماهيري إزاء السياسة الاجتماعية والاقتصادية في الداخل إلى الشوفينية قومية وذلك بزرع خوف مزيف من العدو. ففي البدء كان الاتحاد السوفياتي والمعسكر الشرقي عموماً هما العدو وبعد انتهاء الحرب الباردة وانسحاب الاتحاد السوفياتي من المشهد العالمي أصبح الشرق الأوسط تحديداً والعالم الثالث عموماً هو المستهدف أو العدو الذي ينبغي أخذ الحذر منه وإعداد العدة له.
- الحرب على الإرهاب في الشرق الأوسط.
- الحرب على المخدرات في أمريكا اللاتينية.
- الحرب على الجريمة أيضاً وسيلة لتخويف المواطنين في الداخل وحملهم على الطاعة.
- حفز الرأي العام عن طريق التعبئة الإعلامية.

²². نعوم تشومسكي، الهيمنة أم البقاء، السعي الأمريكي للسيطرة على العالم، ترجمة سامي الكعكي،

(بيروت: دار الكتاب العربي، 2004)، ص 76

-تسليط عقوبات اقتصادية أو الخنق الاقتصادي أو الحصار الاقتصادي كما حدث مع كوبا حتى يعم الجوع والاستياء والغضب ثم الثورة، ما يؤدي في النهاية إلى الانقلاب على الحكم.

-التحويل الديمقراطي، وأيا ما كانت الديمقراطية فهي مقبولة إذا كانت تتوافق مع الأهداف الإستراتيجية والسياسية للولايات المتحدة الأمريكية. وهنا تكمن المفارقة فمن جهة تزعم الولايات المتحدة الدفاع عن الديمقراطية ونشرها في العالم ومن جهة أخرى بل وفي الآن ذاته تقدم الدعم المادي والسياسي لأنظمة أخرى متشددة أو لنقل غير ديمقراطية. ما يعني أن العلمانية أحيانا يمكن أن تشكل خطرا وهنا المفارقة. إذن الولايات المتحدة لا تدافع سوى عن مصالحها وذلك بكل الوسائل الممكنة بل وحتى الوسائل التي لا يمكن لعقولنا تصورها أو قبولها. وفي سياق حديثه عن إستراتيجية الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية يذكر تشومسكي أنها قد أيدت ستالين واعتبرته حليفا وتغاضت عن جرائمه الفظيعة بل إنه كان موضع إعجاب من قبل الأمريكيين حتى أنه لقب بالعم جو. والأدهى من هذا كله هو أن استراتيجية الرئيس روزفلت آنذاك هي "إبقاء الولايات المتحدة "كاحتياطي" في انتظار أن يستنزف الروس قواهم في صراعهم مع النازية قبل أن تتحرك الولايات المتحدة للإجهاز عليها". هذا هو منطق اللامنطق في سياسة الولايات المتحدة حسب عبارة تشومسكي²³.

-تطويع التربية والتعليم من أجل إنتاج أناس خاضعين ذوي عقول معطلة بدل أن يكونوا أحرارا يشاركون في تحديد مسار الحياة السياسية والاجتماعية. ومن أبرز طرق تعطيل العقول هو توجيهها نحو الاستهلاك والتسويق كما يوضح تشومسكي "لايمكنك السيطرة على شعبك بالقوة لكن يمكنك إلهاؤهم بالاستهلاك"²⁴. إلى

²³ - نعم تشومسكي، سنة 501 الغزو مستمر، ترجمة مي النبهان، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 1996، ص124.

²⁴ - نعم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها، ص44.

جانب الاستهلاك يمكن إلهاء الشعب بمشاهدة مباريات الدوري والمسلسلات القصيرة. وإذا استلزم الأمر كما رأينا يمكن اختراع عدو وتخويف الناس منه. -تزييف التاريخ وتزوير الحقائق حيث بذلت الولايات المتحدة جهوداً كبيرة وجمة من أجل إعادة بناء تاريخ الحرب مع الفيتنام. والأسلوب نفسه تتبعه كل الدول إذا ما كان التاريخ يكشف حقائق خطيرة تمس مصالح فئات معينة. وأحياناً أخرى يتم الكشف عن هذه الحقائق بشكل ملفت للنظر وفي أوقات معينة مدروسة بدقة وعناية شديدة بعد أن كانت في الماضي من المحرمات.

مفهوم الإرهاب:

لقد جعلت هجمات الحادي عشر سبتمبر العالم يلج عصر الإرهاب. وهو مفهوم مهم وعصي عن التعريف في نظر تشومسكي إذ لم يعن أحد بالسؤال عما يكون الإرهاب؟ وما هي الحدود التي تفصله عن العدوان أو عن المقاومة؟ "وقد جرى تبني تعريف ملائم هو: الإرهاب هو ما يعلن زعمائنا أنه كذلك"²⁵.

يجد تشومسكي في الكتيب التعليمي للجيش الأمريكي التعريف التالي للإرهاب: هو "الاستخدام المحسوب للعنف أو للتهديد بالعنف من أجل تحقيق أهداف سياسية دينية أو إيديولوجية من حيث الجوهر... وذلك من خلال التمويل والقمع أو زرع الخوف"²⁶. إذن الإرهاب هو اللجوء إلى استعمال العنف قصد التأثير في سياسات الحكومات وترويع الناس وذلك خدمة لقضية سياسية دينية أو إيديولوجية. والحق هذا التعريف يمكن أن تنجر عنه نتائج عكسية تماماً ذلك أن التعاريف في ظاهرها تبدو واضحة كما يبين تشومسكي لكنها تعاريف رسمية نادرة الاستعمال وتتمخض عنها استنتاجات غير مقبولة. "وأسباب ذلك ليست خفية: فالتعاريف الرسمية للإرهاب هي في واقع الأمر نفس تعاريف مكافحة الإرهاب

²⁵- Noam Chomsky, "International Terrorism: Image and Reality," In Alexander George (ed.), Western State Terrorism, (Routledge, 1991).

²⁶ - Noam Chomsky, "Who Are the Global Terrorists?," in: Ken Booth & Tim Dunne, Worlds in Collision: Terror and the Future of Global Order, in: theanarchistlibrary.org, 2002, P2

...لكن مكافحة الإرهاب سياسة أمريكية رسمية ولا يصح هكذا ببساطة أن نقول إن الولايات المتحدة ملتزمة رسمياً بالإرهاب"²⁷. وهذا ما يفند الزعم التقليدي بأن الإرهاب سلاح الضعفاء ويؤكد أنه سلاح الأقوياء. وبناء عليه يصل تشومسكي إلى استنتاج لا لبس فيه "أن الولايات المتحدة دولة إرهابية من الدرجة الأولى" The nited states is a leadingterrorist state. وهي أيضا "مناكث الدول تعصبا في العالم... إنها بلاد أصولية متطرفة"²⁸، وللمتطرفين الدينيين وزعمهم في القضايا السياسية عبر التاريخ وربما سطوتهم في الولايات المتحدة الأمريكية تفوق سطوة نظرائهم في إيران. لقد امتزج في تاريخ الولايات المتحدة العنصر البيوريتاني* المتزمت المتعصب والعنصر العلماني المبني على أفكار التنويريين أمثال جيفرسون وماديسون.

ونظرا إلى أنها دولة أصولية فهي «تساعد دائما أكثر المتشددين الإسلاميين تطرفا ولا تزال. إن المملكة العربية السعودية أقدم وأعز حليف للولايات المتحدة في العالم العربي، وهي الدولة الإسلامية الأكثر تطرفا أيضا. وبالمقارنة معها تبدو إيران مجتمعا متحررا وديمقراطيا، لكن السعودية تقوم بدورها المطلوب"²⁹. يظهر

²⁷ - Ibid.

²⁸ - نعوم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها أبدا، ص 107.

* البيوريتانية Puritanism أو لفظة المتطهرين في الأصل تعبر عن نقد وازدراء الأنغليكانيين التقليديين لجماعة تروم تطهير كنيسة إنجلترا. وهي عموما تشير إلى طائفتين؛ المتطهرون الانفصاليون الذين يعتقدون أن الكنيسة الانجليزية مدنسة، وبالتالي ينبغي للمسيحي الحق أن ينفصل عنها. والمتطهرون غير الانفصاليون الذين يؤمنون بالإصلاح. وبسبب الاضطهادات والمضايقات التي تلقوها في إنجلترا هاجروا في القرن السابع عشر إلى العالم الجديد أمريكا حيث تولوا مناصب مهمة. وقوام معتقدتهم الديني النظر إلى الإنسان على أنه آثم، وفي حاجة إلى الخلاص وتربية متزمتة وتقديس الروابط الأسرية والتفاني في العمل.

²⁹ - نعوم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها أبدا، ص 109.

أن العلمانية رغم كونها شرطا ومكونا أساسيا وحيويا في السياسة الديمقراطية إلا أنها أحيانا يمكن أن تكون مصدر خطر إذا تعلق الأمر بالنفط.

مفهوم الديمقراطية:

يفرق تشومسكي في تناوله للديمقراطية بين مفهومين:

المفهوم الأول: تكون "العامة (الجمهور) مالكة للوسائل اللازمة للمشاركة الفعالة في إدارة شؤونها. وتكون وسائل الإعلام منفتحة وحرّة"³⁰.

المفهوم الثاني: "تمنع العامة من إدارة شؤونها وكذا من إدارة وسائل الإعلام التي يجب أن تظل تحت السيطرة المتشددة"³¹.

بطبيعة الحال يبدو أن المفهوم الثاني مستهجن للغاية ولكنه هو المعمول به والمطبق حاليا. بل أكثر من ذلك يرى تشومسكي أنه مفهوم مؤسس من الناحية النظرية. وللتوضيح يسوق المثال الآتي: "في فترة رئاسة وودرو ويلسون للولايات المتحدة الأمريكية كان المواطنون مسلمين إلى أقصى درجة، ولم يروا سببا للانخراط أو التورط في حرب أوروبية بالأساس... فقامت الحكومة بإنشاء لجنة للدعاية الحكومية... وقد نجحت هذه اللجنة خلال ستة أشهر في تحويل المواطنين المسلمين إلى مواطنين تتملكهم الهستيريا والتعطش للحرب والرغبة في تدمير كل ما هو ألماني وخوض حرب وإنقاذ العالم... وبعد ذلك تم توظيف ذات التكتيك لإثارة هستيريا ضد الرعب الشيوعي"³².

وهذه السياسة ليست مقصورة على الأيديولوجية الليبرالية كما يبين تشومسكي بل هي سياسة انتهجت أيضا من قبل الماركسية اللينينية. وفي هذا السياق يذكر "مبدأ لينين القائل إن طلائع المفكرين الثوريين لا بد وأن تستولي على

³⁰ - نعوم تشومسكي، السيطرة على الإعلام والإنجازات الهائلة للبروجاندا، ترجمة: أميمة عبد اللطيف، الطبعة الأولى، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2003)، ص7.

³¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³² - المصدر نفسه، ص8.

السلطة عن طريق توظيف ثورات شعبية كإحدى الوسائل التي من شأنها أن تدفع بهم إلى سدة الحكم، ثم دفع الجماهير الغبية الدهماء باتجاه مستقبل غير قادرين أو مؤهلين لفهمه أو وضع تصور لشدة غيابهم أو عدم أهليتهم لفعل ذلك³³.

على هذا الأساس يتشكل المجتمع الديمقراطي من طبقتين هما طبقة متخصصة ضئيلة من حيث العدد تفكر وتخطط وتصنع القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأجل المصلحة العامة ثم تنفذها. وطبقة تتشكل من الغالبية العظمى من الناس يمثلون "القطيع الحائر أو الضال" الذي لا بد من الحذر وأخذ الحيطة من وقع أقدامه وزئيره (إذ يمكن أن يقوم بحركات احتجاجية أو انشقاق مثل ما حدث مع الحركات الطلابية والمنظمات المدافعة عن حقوق المرأة وكذا منظمات المدافعين عن البيئة وتلك المضادة للسباق نحو التسليح النووي). وتمثل وظيفة هؤلاء " في كونهم مشاهدين وليسوا مشاركين بالفعل"³⁴.

أضف إلى هذا تناط من حين إلى آخر بهذه الطبقة وظيفة أخرى، وهي وظيفة محددة زمنياً تتمثل في تأييد أحد أفراد الطبقة المتخصصة في الحملات الانتخابية، وهو ما يحفظ وجه الديمقراطية ويميزها عن الاستبدادية إن صح التعبير. إنه نوع من المنطق المقلوب أو مبدأ أخلاقي مكيفيلي على اعتبار أن القطيع الحائر غير مؤهل للمشاركة في اتخاذ القرار. وإن حدث ذلك فإنه سوف يسبب مشاكل جدية. وبالتالي من الخطر منحهم الحرية وإشراكهم في الفعل فهم جهلون كيفية التعامل معها. هكذا المطلوب في هذه الحالة هو ترويض هذا القطيع عن طريق المدرسة ووسائل الإعلام والثقافة الشعبية. والحق الأمر يكاد يكون سيان سواء في الليبرالية الديمقراطية أو في الأنظمة الشمولية ف"الدعاية في النظام الديمقراطي هي بمثابة الهراوات في الدولة الشمولية، وهذا أمر يتسم

³³ - المصدر نفسه، ص 10.

³⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بالحكمة ومرة أخرى: لا ننسى أن المصالح العامة تضلل القطيع الحائر الذي ليس بإمكانه فهم تلك المصالح³⁵. بهذا المعنى يبدو أن أوروبا وأمريكا ليستا مؤهلتين لتقديم دروس في الديمقراطية. وأن جل ما يكتب وما يقال عبارة عن فقاعات لفظية.

وسائل الإعلام

مهما كان التوجه والانتماء السياسي لوسائل الإعلام فهي من منظور تشومسكي عبارة عن "مؤسسات كبرى تباع منتجاتها للسوق"³⁶. وليست هذه المنتجات سوى الناس الذين تجتذبهم وسائل الإعلام ويشتريهم رجال الأعمال. وتمثل المهمة الرئيسية لوسائل الإعلام في أن "يبقي قطيع الرعاع ملهيا وغير حاضر الذهن في انشغاله وانصراف ذهنه عن الحقائق"³⁷. إن صناع القرار يهدفون إلى السيطرة على الفكر وتصنيع الإجماع عن طريق تطويع وسائل الإعلام المختلفة التي "تجعل الرأي العام يوافق على أمور لا يرغبها بالأساس عن طريق استخدام وسائل دعائية"³⁸ والتضليل المعلوماتي وتزييف الحقائق إما بتضخيمها أو بتقليل حجمها واختراع حكايات فظيعة لا أساس لها من الصحة من أجل إثارة الفزع والخوف في أوساط الناس.

وفي "الأسلحة الصامتة لحرب هادئة" **Silent Weapons For Quiet War** يقدم تشومسكي الاستراتيجيات العشرة التي تستعملها وسائل الإعلام من أجل التحكم في الشعوب وتوجيهها بل وكذلك تضليلها. وهي كالآتي:

³⁵- المصدر نفس، ص12.

³⁶- نعوم تشومسكي، ما الذي يريده حقيقة العم سام، ترجمة: الملتقى، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003، ص78.

³⁷- المصدر نفسه، ص79.

³⁸- نعوم تشومسكي، السيطرة على وسائل الإعلام، ص9.

1- إستراتيجية الإلهاء أو التسلية The strategy of distraction: حيث تقوم الحكومات عن طريق وسائل الإعلام بممارسة سياسة إلهاء الرأي العام بالاستهلاك والترفيه وبأمور أخرى غير مهمة، وذلك بدل الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية الحقيقية.

2 - استراتيجية افتعال المشاكل وتقديم الحلول Créates problèmes , then offer solutions: تقوم هذه الإستراتيجية بافتعال مشاكل معينة وجعلها محور اهتمام الجمهور، وذلك عن طريق وسائل الإعلام التي تقوم بنشرها وتضخيمها وإضفاء نوع من التركيز المفتعل والمفرط حتى تصبح هذه المشاكل حديث الناس في كل مكان مثل مشكلة العنف، وبعدها تقدم حلول مبرمجة بطريقة مسبقة.

3. إستراتيجية التدرج The gradual strategy: المقصود بها هو التدرج في عرض وتنفيذ قرارات سياسية وأفكار معينة على الجمهور حتى يكون تقبلها ميسورا ولا تحدث قلاقل.

4 - إستراتيجية التأجيل The strategy of deffering: تقوم هذه الإستراتيجية على التلاعب بالوقت حيث يعطى الجمهور وعودا بتحقيق أمور معينة. وتتناط بوسائل الإعلام مهمة جعله يصدق ذلك ويعتاد على الحال ويتقبله. وبكل سذاجة كما قال تشومسكي سوف يصدق الناس بأن "كل شيء سوف يكون أفضل غدا" لأن ذلك يريحهم. وعادة يريحنا الوهم ونرتاح إليه بدل اختيار مواجهة الحقيقة.

5 - مخاطبة الجمهور على أنهم أطفال Go to the public as a little child: تقوم هذه الإستراتيجية بدورها أيضا بتضليل الرأي العام عن طريق اعتماد لغة صبيانية تقوم ترسانة الإعلانات والملصقات بنشرها. ويتم التعامل مع الناس وكأنهم أطفال مايزالون في طور النمو العقلي والفكري ولا خوف منهم لأن وسائل الإعلام تتحكم فيهم بشكل جيد وعلى طريقة المنبه الشرطي لبافلوف.

6- مخاطبة العاطفة بدل العقل Use the émotionnel Sidé more then the réflexion: تعتمد هذه الإستراتيجية على استثارة عواطف الجمهور ومشاعره عن طريق وسائل الإعلام التي تتحدث عما يחדش المشاعر ويزعزع القناعات سواء

الدينية أو الاجتماعية أو التاريخية، والتي عادة ما نجد معظم الناس مؤمنين بها وملتزمين بتطبيقها ما يجعلهم يتصرفون بشكل انفعالي وغير واع إذا مس أحدهم مقدسات العرف الاجتماعي.

7 - إغراق الجمهور في الجهل و الغباء Keep the public in ignorance and mediocrity: هدف هذه الإستراتيجية هو جعل الجمهور غافلا عما يحدث من حوله من تغيير أو تعديل في الأساليب التي يستعملها النظام من أجل تعزيز هيمنته وسيطرته على الفئات المحرومة والفقيرة وذلك مثل نوعية التعليم المقدم في المدارس الحكومية.

8 - تشجيع الجمهور على استحسان الرداءة To encourage the public to be complacent with mediocrity : ويقع جزء كبير من المسؤولية على عاتق وسائل الإعلام التي لا تقوم بدورها في توعية الجمهور والارتفاع بالذوق الثقافي العام وبمستوى الفهم ما جعل القيم مضمحلة ومتدهورة فاقدة لسموها ولقدسيتهما والدليل على ذلك أن الناس أصبحوا يتقبلون كل شيء وأي شيء حتى أبشع الأمور من جريمة وعنف وشذوذ جنسي وغيرها.

9 - تحويل مشاعر التمرد إلى الإحساس بالذنب Self-blâme strengthen: غرض هذه الإستراتيجية هو جعل الجمهور يشعر بالذنب ويلقي باللوم على نفسه لأن وسائل الإعلام غرست فيه عقدة الشعور بالنقص وبالذنب لأن المؤهلات للحصول على فرص أفضل تعوزه.

10 - معرفة الأفراد أكثر من معرفتهم لأنفسهم Getting to know the individuals better than they know themselves : أصبحت الحكومات قادرة على التحكم في الجمهور ومعرفته بشكل أفضل مما يعرف الجمهور نفسه، وذلك بفضل ما أتاحه تقدم الوسائل التكنولوجية والعلوم المختلفة خاصة العلوم الإنسانية من تقنيات وأساليب للحصول على المعلومات.

دور المثقف ومسؤوليته:

يتحمل المثقف مسؤولية أخلاقية نبيلة وثقيلة معا هي قول الحقيقة والكشف عن الأكاذيب. وهذا أمر بديهي بالنسبة إلى تشومسكي. وللتوضيح يورد المثال الآتي: "أفترض بأنني رأيت طفلا جائعا في الشارع وأنا قادر على أن أقدم له بعض الطعام، ألا أستحق اللوم الأخلاقي إن رفضت فعل ذلك؟ ألا أستحق اللوم إن اخترت ألا أقوم بما أستطيع فعله بسهولة تجاه ألف طفل يموتون كل ساعة من مرض يمكن منعه حسب تقارير اليونيسف؟ أو حقيقة أن مجتمعي الحر والمنفتح متورط في جرائم وحشية يمكن تخفيفها وإنهاءها بسهولة؟ وهل مناقشة هذه الأسئلة ممكنة حتى؟"³⁹. إنها أسئلة تميز بالفعل بين مثقف السلطة الباحث عن النفوذ والمال والمثقف النزيه المنصت لضميره ولأوجاع أبناء مجتمعه وشتان بين الاثنين.

هذا ويميز تشومسكي نفسه عن الأكاديميين، فهم ليسوا بالضرورة مثقفين. إنهم يشكلون طبقة تكنوقراطية وأشخاصا محترفين لهم عملهم وانشغالاتهم بدروسهم ومحاضراتهم. بعضهم خادمون للسلطة وللوضع القائم، وبعضهم يسعون إلى تحسين موقعهم النخبوي "لذلك يقدمون تأييدا ضمنيا للسلطة"⁴⁰. وهؤلاء هم من يصفهم باكونين بالكهنوت الديني مقابل الكهنوت الديني الذي ساد في العصور الوسطى. والحق لا تختلف مهمة المثقف عن مهمة وسائل الإعلام وتتمثل في خلق الانطباعات الخاطئة وتزييف الحقائق من أجل التحكم بالعقول وتسييرها وفق الوجهة المرغوبة والمدرسة.

جملة القول ليس من السهل الكتابة عن التفكير السياسي لنعوم تشومسكي ذلك أن آراءه معروضة في كتبه الكثيرة المملوءة بالتفاصيل عما تشهده بقاع مختلفة من العالم من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية، ترك للقارئ

³⁹- نعوم تشومسكي، أشياء لن تسمع بها أبدا، ص151.

⁴⁰- المصدر نفسه، ص155.

مهمة إيجاد وحدة فكرية تلم بكل ذلك الزخم من المعلومات التاريخية والسياسية والأمنية والإستراتيجية. ويبدو بوضوح طغيان الجانب العلمي على منحى تفكير تشومسكي بما يمتاز به من دقة في شخصيته الفكرية حيث يعود دوماً إلى الاستشهاد بالوقائع والإحصائيات وإلى استقراء التاريخ والأحداث. ولعل هذا ما حال دون أن يطور نظرية سياسية محكمة البناء ومتصفة بالشمول والاتساق. ولكن ما يثير الانتباه والكثير من الاحترام هو نضاله المستمر والتفاؤل الموجود في نزعتة الفوضوية، فهو ينطلق من افتراض إمكانية تحسين الأمور، وهذا موقف إيجابي للغاية.